# العـــلم
## فى شعر الزهاوى

١

قد يظن كثير من الناس أن النزعة العلمية التى تتراءى لنا فى شعر الزهاوى وغيره من المعاصرين نزعة جديدة فى شعرنا العربى، والحقيقة أنها قديمة فيه، فكلنا نعرف أن شعرنا فى العصر الجاهلى كان ديوان العرب وحافظ معارفهم، بحيث كان، ولا يزال، خير مصدر لمعرفة الحياة الجاهلية وحياة القوم وعاداتهم وطعامهم وثيابهم، فكل ما يتصل بهم مبثوث فيه. ولكن شاعرا منهم حينئذ لم يعمد إلى صنع قصيدة تعلم الناس من حوله وتثقفهم، فقد كان شعرهم لا يزال فى دوره العاطفى الخالص، وإنما نحن الذين نستطيع أن نستخلص منه ما نشاء من معيشة القوم، حسب قدرتنا على الفهم والاستنباط.

فلما خرج العرب من جزيرتهم وتحضروا، وظهرت حاجتهم للتثقيف والدرس، واختلفوا بين خوارج وشيعة وأمويين ومرجِئة وقَدَرِيَّة أخذ الشعر يحمل رواسب من آراء القوم ومذاهبهم السياسية والدينية. ولم يلبث معلمو اللغة أن طلبوا الشعر الغريب، وإذا رؤبة يصنع لهم أراجيز يضمِّنها شوارد اللغة وشواذَّها وكلَّ أوابدها اللفظية، واتخذ الرَّجز وسيلته إلى استظهار هذه العقَد اللغوية. وبذلك أصبحت الأرجوزة عنده متْنا علميا، أو قل إنها أولُ مَتْنٍ علمىّ فى لغتنا العربية، وهو متن يصاغ كله من وزن الرجز.

ونتقدم إلى العصر العباسى فيتضخم العقل العربى ويأخذ فى التعبير عن العلم تارة بالشعر وتارة بالنثر، فبينما نجد مثلا رسائل تبحث فى الفِرَق

obeikandi.com

والنِّحَل الإسلامية نجد بعض الرُّجَّاز يصوغ لنا هذه النِّحَلَ والفرق رجزاً وشعرا . ولما ذهب بشار الشاعر المشهور إلى تفضيل النار على الطين تصدَّى له صَفْوان الأسدى يفضل الطين ويتحدث عن الأرض وعناصرها وما فيها من أسرار وعجائب ومعادن مختلفة ، كل ذلك يعرضه فى روح علمية .

ونظل طوال القرن الثانى نرى صورا من هذا الاتجاه ، فبشر بن المعتمر ينظم فى الحيوان قصيدتين طويلتين ، وينظم أبان بن عبد الحميد كتاب « كليلة ودمنة » ، كما ينظم قصيدة طويلة سماها « ذات الحلل » يذكر فيها بدء الخلق ونظام الكون ويأتى بعده إبراهيم الفزارى فينظم قصيدة طويلة فى الفلك والنجوم بلغت آلافا من الأبيات .

وبذلك يصبح لنا لون قائم واضح من الشعر يخالف ما ألفه العرب فى جاهليتهم وما ألفته كثرتهم فى إسلامهم ، وهو لون لا يُراد به إلى التعبير عن الوجدان والعواطف الشخصية ، وإنما يراد به إلى المعرفة والثقافة وأن تُضَمَّ مسائل علمية خاصة لا بين دفتى كتاب ، ولكن فى قصيدة طويلة من القصائد . ولم يكن العرب بدعا فى الأمم حين استحدثوا هذا النوع من الشعر المعروف عند الغربيين باسم الشعر التعليمى ، فمن قبله عرفه اليونان فى قصيدة هزيود فى « الأعمال والأيام » .

ويتسع هذا الفن من فنون الشعر عند العرب ، فنراهم ينظمون فيه كل ألوان المعرفة عندهم ، وكادوا لا يتركون علما من العلوم دون أن يحيلوه إلى الشعر ، ودون أن يودعوا مصطلحاته أرجوزة طويلة قد تبلغ ألف بيت ، وقد تنقص أو تزيد ، وألفية ابن مالك فى النحو معروفة .

وقد أكثروا من النظم فى الكيمياء والحساب وأصول الفقه والفقه نفسه والقراءات ومصطلح الحديث وعلوم البلاغة ، وهم يسمون قصائد

البلاغة بالبديعيات . وكم بديعية ألفت وشرحت شروحا مختصرة أو مطولة ، وكم استنفدت الشروح المطولة من مجلدات . وحتى عروض الشعر وقوافيه نظموها شعرا . ويخيل إلى الانسان أنه لم يعد عندهم ضرب من ضروب العلم والمعرفة إلا أحالوه نظما .

ومعنى ذلك أن الشعر العربى غنىٌّ فى هذا اللون من الشعر التعليمى وأنه يكتظ بقصائد وأراجيز منه . وقد تبلغ القصيدة أو الأرجوزة ألف بيت عَدًّا ، وقد تزيد إلى آلاف . فشعراؤنا تنَبَّهوا إليه منذ القدم، وعبروا به فى مجالات علمية وثقافية مختلفة ، ولكنهم لم يعدوه من الشعر العام ، إنما عَدّوه متوناً للحفظ والتسميع .

## ٢

كان هذا اللون من الشعر التعليمى قائما فى شعرنا ، حتى طلع علينا العصر الحديث ، ورأى شعراؤه أن يسايروا نزعات العصر ، وأحست طائفة منهم أنه ينبغى أن تهتم فى شعرها بالعلم وأن تدخل إليه حقائقه ، فكفانا إفراطاً فى الخيال ، وكفانا تحليقا فى أجواء بعيدة عن الواقع ، واقع المعرفة . وكان الزهاوى أول من تحمسوا لهذا الصنيع . ولم يكن يعرف لغة أجنبية من لغات الغرب ، وإنما كان يعرف الفارسية والتركية . وعن الأولى ترجم رباعيات الخيام شعراً ونثرا ، أما التركية فإنه عاش بين أبنائها إذ رحل مبكرا إلى الآستانة منذ القرن الماضى ، وقد وكلوا إليه هناك تعليم الفلسفة الإسلامية فى بعض مدارسهم(١) .

وبَعثته الوظيفة على الاتصال بفكرنا فى العصر الوسيط من فلسفة وغير فلسفة ، وكانت تركيا قد سبقت بلاد الشرق الأوسط إلى الاتصال بالغرب

(١) انظر « الزهاوى الشاعر» لإسماعيل أدهم (طبع مطبعة التعاون بالإسكندرية )ص ٢٥

وعلوم الغرب ، فأكبَّ على ما تُرجِم من ذلك وخاصة فى الطبيعة والفلك ، ولم نلبث أن وجدناه يؤلف كتابين هما « الكائنات » و « تعليل الجاذبية » . ويظهر أنه شُغِفَ شغفا شديدا بهذه المعارف وما يتصل بها من آراء جغرافية ، ولم ير أن يقتصر فى نشرها على كتابيه السابقين إذ كان شاعرا ، فرأى أن يسلكها فى عقود الشعر .

وعلى هذا النحو أصبح الشعر عنده لا ينبض بالشعور وإنما ينبض بالفكر الحديث ومعارفه العلمية ، فقد سلط عليه قوى العصر العقلية ، ودفعه لأن يتمثلها ويتغناها ، حتى يصور لمعاصريه القوى التى تحرك الطبيعة والدوافع التى تذعن لها الأفلاك فى مجراها ومسراها . وبذلك ترك الطبيعة الإنسانية ودوافعها النفسية ، وإحساساتها العاطفية إلى الطبيعة الكونية وما ينبث فيها من عجائب وغرائب ، فلم يعد الإنسان ومشاعره ومشاكله النفسية الشيءَ الذى يهمه ، إنما أصبح الكون هو الذى يشغله بما فيه من أثير وجاذبية تشدُّ وحداته فى الأرض والسماء . واستمع إليه يقول فى قصيدته « سياحة العقل » :

لا تقبل الأجرام عَدًّا كلا ولا الأبعاد حَدًّا
العقل يرجع خائبا عنها وإن لم يَأْلُ جُهْدَا
مسترشدا بعلومه فيها إذا ماضلَّ يُهْدَى
والعقل يعلم من سياحته التى أولته مجدا
أن المجرَّة لم تكن إلا عوالم فُقْنَ عَدًّا
والسحْبُ فيها أنجُمٌ
هُنَّ الشموسُ بَعُدن جدًّا
متحركات فى السما ء تخال أن لهن قَصْدَا
متجاذبات لو تخلَّفَ واحدٌ عنها لأودَى

وهناك أجرامٌ على … كرِّ الدهور جمدنَ بَرْدَا
ستعيد يوما ما حرا … رتها القديمة أو أشدَّا
إنى لأحسب أن هـذا … الكون حيٌّ سوف يَرْدى
وكذاك أحسب كلَّ نجْـ … ـم جوهرا للكون فَرْدَا
والأرض بِنْت الشمس تلـ … ـزم أمَّها جَرْيا وتحدى
وتدور فى أطرافها … مشدودةً بالجذب شدَّا
فتطوف مثل فراشةٍ … لاقتْ بجنح الليل وَقْدَا
ويدور محورها توجُّـ … ـه نحو نور الشمس خَدَّا
لولا دليل الجَذْب ما … ملكتْ بهذا السَّعْى رُشْدا
ولأبْعدت عن أمِّها … فمضت وما ألفتْ مَرَدَّا
بل تاه جامدُ جرمها … أو صادفتْ فى السير ضدَّا
وَيْلى لها إن صادمتْ … جرما من الأجرام صَلْدَا
فهناك يهلك أهلها … وتكون للإنسان لَحْدَا

وواضح أن سياحة العقل فى هذه القصيدة إنما هى سياحة فى السماء، وبين النجوم والأفلاك، ثم رجوع إلى الأرض. وهو فى كل ذلك لا يتحدث عن خبرته ولا عن مشاعره، وإنما يتحدث عن بعض الحقائق العلمية التى اشتهرت بين علماء الفلك والطبيعة، فهو يستوحى من هذه الحقائق شعره، ويكاد الشعر يكون نظما لها، فهو لا يضيف عليها شيئا من تخيلاته وأفكاره إلا قليلا جدا، وما يكاد يكون فى حكم العدم.

ولعل هذا هو السبب فى أن قارئه يشعر مباشرة بغايته العلمية: إذ لا يغلفها بجو نفسى خاص، ولا ينشر حولها ضبابا من الشعور أو الإحساس الدقيق. فالعلم أو المعرفة العلمية تظهر فى مرآة شعره كما هى أو تكاد، ولا تتحول مطلقا إلى صورة فكرية أو شعرية؛ فالشاعر مشغول عن

obeikandl.com

نفسه وعن عالمه الإنسانى بالعلم وما يقول فى الأفلاك ، وما يجرى فى بعضها من حياة ثم ما يربطها من قوانين الجذب .

ليس الشعر عنده إذن لسان الجنس البشرى ، وإنما هو لسان العلم وخلاصة لقوانينه ونَظَرٌ فى مبادئه وفى رقعة الأرض والسماء التى يستنبط منها مادته فى العلوم المختلفة ، وخاصة فى الطبيعة والكيمياء وما يقال عن الجاذبية والأثير والذرة ، أو الجوهر الفرد . وإنه ليستطرد فى كثير من شعره إلى بيان ذلك وتفصيله على نحو ما نرى فى قصيدته « الدفع عوض الجذب » إذ يقول :

تحوى السماء نجوما ذات أنظمة ... من الشموس كثارا ليس تنحصرُ

تخالها ثابتات ، وهى مسرعةٌ ... كأنها الخيل فى بيداء تحتضرُ

وكل شمس لها جرم بنسبته ... يجرى الأثير إليها فهى تستعر

وهو الذى يوسع الأجسام قاطبةً ... دفعا عليها به الأجسام تنهمرُ

وللأثير يدٌ فى الكون قاهرةٌ ... تدحرجت بعصاها هذه الأُكَرُ

الجرم يأخذ منه بعضَ حاجتهِ ... وللذى زاد عن حاجاته يَذَرُ

وعند ذلك يجرى فى جواهرهِ ... كالماء قد صادفَتْه جاريا حُفَرُ

ردًّا لما اختلَّ فيهِ من موازنةٍ ... إن التوازن فى القوات مُعْتَبر

والجوهرُ الفَرْدُ فى الأجسام ليس سوى ... كهيربات بها يقوى ويقتدر

والبعض منه كما فى الراد يوم يُرَى ... ينحلُّ من نفسه فيها وينتثر

هذا الذى أنا مبديه لكم نظرى ... وإنما كل إنسان له نَظَرُ

وليس بصحيح ما يقوله من أن هذا نظره ، وإنما هو نظرُ علماء الكيمياء والطبيعة فى عصره ، إذ كانوا يذهبون ، ولا يزالون ، إلى أن الأجسام تتكون من ذرات ، وتتكون الذرات من نواة وكهارب أو « إليكترونات »

obeikandi.com

تدور حولها وتتطابق معها فى الحجم والوزن ، بمعنى أن لكل ذرة حجما ووزنا خاصا ، وكذلك الشأن فى كهاربها . ويربط الأثير بين كل ذلك ، فهو الذى يربط بين النواة والإليكترونات ، وهو نفسه الذى يربط بين الكواكب والنجوم . ومن هذه المعلومات ونحوها يؤلف الزهاوى شعره مغربا على العامية العلمية التى كانت منتشرة فى عصره .

ومن تكرار القول أن نقول إن الزهاوى فى ذلك لا يعبر عن الكون ، فالشعر عنده لا يستجلى النفس وإنما يستجلى الكون ، لا من حيث الجمال الهاجع فيه وفى مشاهده ، وإنما من حيث القوانين العلمية التى انتهى إليها العلماء فى بحثه وفى درسه . وبذلك يستحيل الشعر عنده إلى نوع من العلم ، ومحاولة لضغط المعلومات فى وزن من أوزان النظم ، وكأنه يتجرد من نفسه ليتحول إلى بسط هذه المعارف العلميـــة فى نظمه مجملا تارة ومفصلا أخرى .

والزهاوى بما أحدث من ذلك كان يسعى الى أن يعد فى الشعراء المجددين لعصره ، ولكن يظهر أنه حلّق بعيدا عن آفاق الشعر ومملكته ، فقد ذهب يرضى آفاق العلم والعلماء ، ويجلب من كتبهم ونظرياتهم ما يُحلّى به طائر شعره ، وما لعله يلمع فوق أجنحته ، وخاصة فى أعين السذج والجهلاء ممن لم ينالوا قسطا كبيرا منه . وكانت مباحث الذرة والأثير من أهم ما جذب شاعريته وجعله يندفع فى هذا الاتجاه . وجذبته أيضا فكرة المادة تتحول إلى طاقة والعكس بالعكس ، وليس ذلك فقط ، فكل منهما مظهر من مظاهر الأثير . واسمعه يقول فى قصيدته « القوة والمادة » :

ما فى الجواهر ، والأجسامُ منجمها
إلا قوى هى تبنيها وتهـــدمها
وهـذه لستُ بالتحقيق أعلمها

لا جسم إلا ويفنى بعد أزمنة
فلا جواهره تبقى ولا الصورُ

فيها القوى وهى ما بالسلب يتصف
كهيرباتٌ إلى الأضداد تنصرف
تدور من حولها وثبا ولا تقف

فى حبة الرمل فوق الأرض ساكنة
بين القوى ما به الأطواد تنفطر

ليس القُوَى غيرَ بعض الجسم قد لطفا
والجسم إلا قوى مجموعة كُشفا
وليس شىءٌ عن الناموس منحرفا

إلى الأثير بفعل منه مرجعهُ
فهو المؤثر فى الأشياء والأثرُ

وما يقوله الزهاوى عن الأثير وما فى الأجسام من قوى أو طاقات وما فى الجواهر أو الذرات من كهارب موجبة وسالبة ، كل ذلك صحيح ، وما الشمس والقمر والنجوم وكل الأجرام إلا جواهر يربط الأثير بين داخلها كما يربط بينها وبين غيرها . ولا أدرى كيف قال : « لا جسم إلا ويفنى بعد أزمنة » فمن القواعد المعروفة فى الطبيعة أن المادة لا تفنى .

ولعل فى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على خطورة تحوُّل الشعر إلى العلم الطبيعى وحكاية قوانينه ، فهذه القوانين غير ثابتة ، وهى فى تغير مستمر . وإن ما يعرفه العالم فى هذا العصر عصر الذرة من تاريخ العلوم الطبيعية وقوانينها أكثر جدا مما كان يعرفه فى أول هذا القرن ، وإذا رجعنا إلى عصر نيوتن هالنا ما بين عصرنا وعصره من بعد الشقة ، فإذا تحولنا

إلى عصر الفيلسوف اليونانى « أنكسياندر » وهو أبو العلوم الطبيعية وقوانينها وجدنا الهوة شاسعة ، حتى لا تصح المقارنة .

ومن هنا كان يحسن بالشاعر أن لا يخرج عن الدوائر الطبيعية للشعر ، ونقصد دوائر النفس ومشاعرها ، لأن هذا الجانب فى الإنسان خالد وما نظمه هوميروس قبل أنكسماندر وعصره لا يزال العالم مشغوفاً به مشدودا إليه ، أما ما كتبه أنكسياندر فقد أصبح شيئا تافها ، ولا يُرْجَعُ إليه إلا لمعرفة نشأة العلم الطبيعى حين كان لا يزال يحبو فى المهد صبيا ، أما بعد ذلك فإنه لا يهم أحدا لأنه أصبح لا يرضى حاجتنا العقلية .

وهذا هو الذى يجعل موقف الشاعر دقيقا حين يترك عالم الشعور والأحاسيس إلى عالم الفكر والعقل ، لأنه يترك الشىء الثابت فينا إلى الذهن وعالمه ، وهو كل يوم فى شأن . وليس ذلك فحسب ، فإنه يتناول مسائل وقوانين قابلة لأن تصبح باطلة وتحل محلها قوانين أخرى ، وحينئذ تزول كل قيمة لشعره ، لأن قوانينه التى بَشَّر بها انتهت ، ولم يعد لها موضوع قائم ، أو بعبارة أخرى أصبحت غير ذات موضوع .

٣

ولم يستمد الزهاوى فى شعره من قوانين الطبيعة والكيمياء والفلك فحسب ، فقد ذهب يستمد أيضا من علم الحياة ، وشغف شغفا شديدا بنظرية النشوء والارتقاء وأن الكائنات الحية تطورت من حيوانات دنيا إلى الإنسان متنقلة فى مراحل ، ومتدرجة من أسفل إلى أعلى ، من الحيوانات الفطرية التى تعيش فى الماء إلى ابن آدم الذى يعيش على سطح الأرض ، ويغوص فى البحار ، ويحلق فى السماء .

وكل من عاشوا فى الثلث الأول من هـذا القرن يعرفون الضجة التى أحدثتها هذه النظرية بيننا وأن من كان يؤمنون بها ويذيعونها فينا كان يعدهم

obeikandi.com

الجمهور مارقين خرجوا على معتقداتنا وما ورثناه من علم عن آبائنا . ولما كان أصحاب هذه النظرية يرون أن حَلقة القرد أقرب الحلقات السابقة لحلقة الإنسان فى هـذا التطور المتدرج شاع بين الناس لذلك أن القائلين بنظرية التطور يذهبون إلى أن أصل الإنسان قرد ، ومعروف أنهم يمدون نظريتهم الى أعمق من ذلك، إلى طبقات سفلى فى الكائنات الحية .

وكان الزهاوى أحد من دخلوا فى هذه المعركة ، إذ كانت تُكْتب فيها المقالات ويكثر الجدال والصراع ، غير أنه لم ينزل المعركة ناثرا ، وإنما نزلها شاعرا ، فقد ردَّد كثيراً فى شعره هذه النظرية ، وكان دائما يلقيها إلقاء الواثق المعتنق لها الذى لا يطيل فى الدفاع عنها ، لأنها أصبحت من البديهيات العلمية ، ولا يصح فيها الجدال ولا ينفع اللجاج . ومن أطرف ما نظمه فيها قصيدته « سليل القرد » التى نشرتها له « مجلة الرسالة » سنة ١٩٣٦ قبل وفاته بقليل ، وفيها يقول :

عاش فى الغاب القردُ دهراً طويلا ... قبل أن يلتقى للرقىّ سبيلا
وُلِدَ القردُ قبل مليون عامٍ ... بشراً فارتقى قليلا قليلا
أىُّ شىء ألمَّ بالقرد حتى ... هجر الغابَ نجلُه والقبيلا
إنه لولا العقـل كان ضعيفا ... وعليه الحيـاة عِبْئا ثقيلا
وعلى رجليه مشى بعـد أن سا ... رَ على أربـعٍ زمانا طويلا
تَخِذَ الصَّخْرَ بعد نحْتٍ سلاحا ... يَتَّقى الوحشَ ضاريا أن يغولا
إنه فى لقـائه للضوارى ... لم يكن خوَّارا ولا إجْفيلا
إن عقل الإنسان خير سلاحٍ ... ولقد تفضلُ العقولُ العقولا
يا له من تطورٍ حوَّل القرْ ... دَ لإنسان يُحْسِنُ التخييلا
ولقـد فارق القبيلة إلا ... أنه ظلَّ حبْـلُهُ موصولا
ولدته عروسةُ الغاب من قر ... د جميلٍ فكان قرداً جميلا

obeikandl.com

عاش أبناؤه دهورا وما إن عرفوا تحريما ولا تحليلا
بعد فجر الإنسان كان غدوٌّ وأرى أن للغدوِّ أصيلا
دوَلٌ فوق الأرض ذات احتشام غير أنى فى خشيةٍ أن تدولا
إننى أخشى للنشوء انقلابا فيعود الإنسان قردا كسولا
وإذا ما خلا من الناس وجه الأرْض كان الخلوُّ خطباً جليلا
وإذا ما بالعكس عاشوا وجدُّوا فسيمحون الموتَ حتى يزولا
ولَيأتى باسم (السُّبَرْمان) نَسلٌ هو أرقى منهم وأهدى سبيلا
يتقصَّى كُنْهَ الطبيعة حتى ليس يبقى شىءٌ له مجهولا
وترى فوق المنكبين له رأ سا كبيرا وساعدا مفتولا
وعلى رأسه الكبير ترى شَعْرا أثيثا تخاله إكليلا
وإذا ما أبصرت عند اللقاء العَيْنَ منه حسبتَها قنديلا
وإذا ما تكاثروا حكموا الأر ض بعَدْلٍ جبالها والسُّهولا
أخضعوا أصناف الأشعة حتى جعلوا منها للسماء رسولا

والقصيدة تتحدث عن نظرية التطور وأن النوع الإنسانى نهاية لمراحل لحقت جنسا أو نوعا من الكائنات الحية . والزهاوى يقف هنا عند تحول الإنسان من عالم القرد إلى عالم البشر ، ويتحدث عنه وهو لا يزال فى الكهوف والغابات ، ويتدرج به فى أطواره من حين مشى على رجليه بعد أن كان يمشى على أربع ومن حين اتخذ سلاحه من الصخر يتقى به الحيوانات ، إلى أن أصبح إنسانا متمدينا يؤسس الدُّوَلَ والحكومات . ويعرض لعقله ومدنيته ثم ينتقل إلى ما ينتظره من دورة جديدة أرقى من الدورة التى هو فيها الآن ، دورة «السبرمان» التى تحدث عنها بعض الأدباء الغربيين . وحاول أن يصوره فى هذه الدورة ، وقال إنه سيكون أرقى وأهدى سبيلا ، وإنه لن يُعجزه شىء فى الأرض ، فسيطّلع على أسرار الطبيعة ، وستلقى إليه

بمفاتيح هذه الأسرار جميعا ، وسيكون جسمه عاتيا ضخما جميلا ، وسينشر العدل فى طبقات الناس ، وسيسيطر على الكون سيطرة تامة ، فيعرف كل محركاته ، وتخضع له كل قواه وشعاعاته .

وإذا كان الزهاوى لم يعرض فى هذه القصيدة بالتفصيل للتدرجات والتطورات التى تنقل فيها النوع الإنسانى قبل وصوله إلى مرحلة القرد ، فقد عرض لذلك فى قصائد أخرى ، وفى إحداها يقول :

كلُّ ظنى أن الحياة على الأر    ض بدتْ من تفاعل الكيمياءِ
وهْى ليست فى كل ذلك إلا    مظهرا من مظاهر الكهرباء
ولد الكهرباءُ فى الأرض أحْيا    ءً بدتْ قبل البَرِّ فى الدَّأماء
ثم إن الحيوان بعد دهورٍ    صار إنسانا ماشيا باستواء
وقضتْ سُنَّةُ الوراثة فيهِ    أن تكون الأبناء كالآباء

وهو هنا يؤكد نظرية النشوء والارتقاء ، بل يذهب معها منحدرا إلى أصولها الأولى فى الكائنات الفطرية ، وإنه ليرد الحياة إلى الكهرباء ، فهى التى نفخت الوجود فى الخلايا الأولى ، ومنها قبست الكائنات الحية كلها حياتها وبقاءها .

٤

وهذه النزعة العلمية عند الزهاوى جعلت شعره يصطبغ بصبغة مادية ، إذ جعله العلم يعنى بالجسم والمادة ، وجعله إيمانه بالكهرباء يبتعد عن الروح وعالمها ، وكان قد تصادف أن المذهب المادى شاع فى أوربا أثناء القرن التاسع عشر لعلوِّ سلطان العلم الطبيعى ، فتناول قبسا بل أقباسا من ذلك فى شعره ، وذهب يبثها فى عمله ، وينثرها فى قصائده من مثل قوله :

ما فى قُوَى الإنسان أو تركيبهِ    شىءٌ إلى غير الطبيعة ينتمى

وقوله :

obeikandi.com

ما الكهرباءُ سوى الحياة إذا انتهتْ
حركاتُها ذهبَ الحياةُ بَدادِ

وقوله :

مافى الوجود سوى أثيرٍ واسعٍ فهو القُوَى والروح والأجسامُ
فى الكون أجمع أرضِه وسمائه للكهرباء النقضُ والإبرام

وتكثر مثل هذه الإشارات المادية فى شعره . غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن هذه المادية لم تكن صادقة كل الصدق ، ففى أحوال كثيرة نراه يشير إلى عالم الروح مؤمنا به ، مذعنا لحقيقة وقوعه ، بل إنه ليؤمن بالبعث والنشور ، وأن يوم القيامة آت لا ريب فيه . ومعنى ذلك أن هالة الروح تحيط بماديته ، وأن عقله لم يستطع أن ينفكّ عنها أو ينفصل ، فهو يجرى فى فلكها على نحو ما نرى فى قوله :

وما المرء إلا روحُه فهو وحده لبابٌ وأما الجسم فهو له قشرُ

وقوله :

قد فارق الجسمَ يسمو بعد ما هبطا روحٌ به كان قبل الموت مرتبطا

وقوله :

هيهات ليس لمن به تودى المنية من حياةِ
إلا إذا أتت القيا مة وهى يوما سوف تاتى

وفى هذا ومثله ما يدل على أن النزعة المادية عند الزهاوى لم تكن تصدر عن قلبه ، وإنما هى بِدْع جاءه من الخارج مع ما جاءه من العلم وقوانين الكهرباء والأثير . ولذلك كانت ، مهما تجمدت وأصبحت كالصخر الثابت فى شعره ، لا تلبث أن تذوب ، يذيبها بخار الروح والإيمان بالميتافيزيقا وما وراء المنظور .

وكان هو نفسه يشعر بذلك ، وكان يُحدث فيه موجةً من الحيرة والقلق ،

بل من الظنون والشكوك، فهو مضطرب لايدرى أين يولى وجهه ويستريح ، هل يولـّيه نحو العلم وما يطوى فيه من ماديته، أو يوليه نحو الدين ومايطوى فيه من روحيته؟. إنه إن رفض العلم أحسَّ بفراغ هائل فى عقله، وإن رفض الدين أحس بفراغ أشد هولا فى قلبه ، وهو لذلك كورقةٍ فى مهب ريح ، لا تثبت ولا تستقر على حال :

حيرةٌ فى الحياة قد صدفتنى … عن بلوغى من الحياة مرامى
وقضتْ أننى أطيل وقوفا … فى ممرّ الشكوك والأوهام

ومايزال يلح على هذه الفكرة، فهو أسير الحيرة والشك، وهو لا يستطيع أن يبرم أمره ويتجه فى حياته وجهة واحدة، إما إلى اليمين وإما إلى اليسار . ولعل خير قصيدة تصور هذا التذبذب فى نفسه قصيدته « الشك لا يهدى » التى نشرها فى مجلة الرسالة قبيل وفاته ، وهو يستهلها بقوله :

رأيتُ الهدى فى الشك والشكُّ لا يهدى
كأنىَ بالظلماء قد كنت أستهدى
فطورا أقول الروحُ كالجسم هالكٌ … وطورا أقول الهالكُ عنه على بُعْد
فيا لك من شكٍّ يبرِّح بى ولا … يبارحنى حتى أوسَّد فى لَحْدِى
وإنىَ لا أدرى أرشدىَ كان فى … ضلالىَ هذا أم ضلالىَ فى رشدى
أ أفقد جسمى وحده عند ميتتى … أم الروح مثل الجسم يشمله فقدى؟
أروحٌ وجسم أم هوالجسمُ وحده … يحرِّكنى فيما يضلِّل أو يَهْدِى؟
أُعذِّب حَوْبائى بما أنا فاكر … كأنىَ من أعداء حوبائىَ اللُّدِّ

وظل على هذا النحو معلقا فى الفضاء بأرجوحة الشك لا يقطع برأى، فهل يرجح العلم والمادة ، أو يرجح الدين والروح ويؤمن بخلودها؟. والحق أنه لم يستطع أن يرجح إحدى الكفتين ، وإن كان قد تحدَّث طويلا عن العلم والعقل ، وما لقى فى سبيلهما من عنت، صبه عليه مخالفوه صبًّا .

obeikandl.com

٥

وأظنُّ أنه قد اتضح لنا الآن الزهاوى وما نظمه من شعر فى هذا المجال العلمى ، وكيف أن العلم ألقى على نَظْمه ظلالا من المادية ، أو قل من الشك والحيرة بين المادية والروحية . وكنا نتمنى لو طال هذا الشك وتعمقه إلى آماد بعيدة فى داخله ، بل كنا نتمنى أن يتحول العلم عنده إلى مشاعر وأحاسيس . أما أن يستمر على نحو ما استمر عنده حقائقَ وقوانينَ تقرَّر فإن شعره يبدو متعلقا بأشياء غير ثابتة ، أشياء من طبيعتها التغير ، وأنها لا تبقى ولا تدوم ، فسرعان ما تنمحى وتزول . أليس يتجدد العلم دائما ؟ أو ليس يَطْلع علينا العقل كل يوم بجديد قد يلغى إلغاء حكما أو نظرية ضخمة سابقة .

ومن هنا كان يحسن بالشاعر حين يتعلق بالعلم أن يمزجه بالحقائق النفسية الكلية ، لأنها حقائق دائمة ، ولا تتغير على شاكلة ما نرى فى حقائق العلم ، من تغير وتحول دائب مستمر . والشاعر الممتاز هو الذى يستطيع أن يقوم بهذا الصنيع ، بل هو الذى يستطيع أن يحوِّل العلم نهائيا من حقائقه الزائلة إلى حقائق الشعور المطلقة الثابتة .

وليس معنى ذلك أننا نرفض العلم فى الشعر رفضا باتًّا ، وإنما معناه أننا نطلب من الشاعر العالم أن يحول لنا علمه إلى شعور ، ولنتصور اليوم شاعرا يعرض علينا فى إحدى قصائده حقائق القنبلة الذرية ، وما وضعه العلم الحديث من نظريات حول الذرة ، وما يدور حولها من كهارب ودقائق موجبة التكهرب ، وأخرى سالبة التكهرب ، فإنه إن وقف عند تقرير ذلك نبا عن أذواقنا ، ولم يؤثر فى أنفسنا لا قليلا ولا كثيرا ، لأن شعره لا يحمل لنا خبرة نتعلمها فى الحياة ، ولا نجد فيه ما يُسلينا ولا ما يعزينا عن هذا الدمار الذى سيحيق بنا ، إنما نجد فيه آلة الخراب وقذائفه مسلطة على رءوسنا كأنها الأحجار الصخرية المدمية القاتلة .

وهو لا يصبح شاعرا حقا إلا إذا تحول بهذه القنبلة الذرية وقوانينها إلى نفسه ، فاستخرج من مناجمها مشاعر وأحاسيس تصور نكبة الإنسانية المنتظرة،ولا بأس من أن يعرض لتاريخها القديم ولمستقبلها المظلم وما ينتظرها من هذا البلاء وشره المستطير .

وإذن فالزهاوى لا يُلام لأنه أدخل العلم إلى الشعر ، وإنما يلام لأنه لم يمزج مزجا له قيمة بين العالَمَين: عالَم العقل وعالم الشعور ، فقد بقى العلم عنده كما هو ، ولم يضف إليه شيئا من أحاسيسه ومشاعره إلا نادرا جدا ، ولذلك كنا نحس أثناء قراءتنا لشعره بغير قليل من النفور ، فنحن ندخل معه فى صحراء موحشة ، ليس فيها حياة وليس فيها متاع لنفس ، ومن أين يأتى المتاع وهو لا يحزن ولا يفرح أثناء ما يلقى من معلوماته ؟ . إنه عالم فحسب ، وهو لا يخلط عواطفه بعلمه ، لأنه يراها من واد آخر غير واديه .

ومن هنا كنا لا نبعد إذا قلنا أنه حمَّل الشعر عبئا ثقيلا مضنًّا عجز عن النهوض به ، إذ لم يستطع أن يتمثل نظرياته العلمية تمثلا شعوريا ، بل ظل يتمثلها تمثلا عقليا خالصا ، وظل ينقلها إلينا وكأنه يعدها لنا عدًّا ، فنعدّ معه ، ولكن بدون شعور ، وبدون إحساس خاص .

وليس الشعر ومايطوى فيه من شعور هو مانفقده فقط فى هذا الجانب العلمى عند الزهاوى ، بل نحن نفقد عنده أيضا لغة الشعر وموسيقاه الهنيئة . أما اللغة فقد جارت عليها لغة العلم ، إذ كان الشاعر مهتما بنقل معانيه ، فنقل معها ألفاظها وما تدور فيه من أساليب . وأما الموسيقى فإنها ضلّت منه أثناء توغله فى شعاب العلم وغاباته المتداخلة الملتفة .